أثر المرجعية الحديثية
في المصطلح السيبويهي

ذ. عبد العزيز احميد(*)

جاء في الكليات لأبي البقاء أن الحديث «اسم من التحديث و هو الإخبار، ثم سمي به قول أو فعل، أو تقرير نسب إلى النبي عليه الصلاة و السلام»[1]. وقد ظل محمولا في الصدور إلى أن جاءت مرحلة التدوين الشامل في مفتتح القرن الثاني الهجري على أحسن تقدير فدون «بالطريقة العلمية والنقد الأمين»[2]، وكان ذلك المفتاح لظهور أمهات الحديث الجامعة بالأسانيد الموثقة كموطأ مالك ومسند أحمد، ثم ظهرت بعد ذلك الكتب الستة، ثم جاءت كتب الاستدراك طورا فطورا.

لقد تضمنت تلك المصادر، بالإضافة إلى متون الحديث، العلوم الخاصة بتلك المتون من حيث روايتها ودرايتها من أجل رفع التزييف والوضع والتدليس الذي أوشك أن يضر بها.

وعلى شاكلة الحديث النبوي مرت اللغة العربية بمراحل، إلى أن جاء الإسلام فاعتراها تغير بسبب ما طرأ عليها من اللحن على إثر اختلاط العرب بغيرهم من الأمم، ثم تعرضت كما تعرض الحديث النبوي إلى «موجة من التزييف والوضع والتدليس أوشكت أن تضر بمتنها»[3]، وهي أخطر من مرحلة اللحن حسب بعض الدارسين، و لقد كانت للوضع في اللغة «عوامل أوجدتها تقلبات الظروف والحياة كتلك التي كانت وراء الوضع في الحديث النبوي، بل إن بعضهما لمما يشترك في الأمرين معا، وكأن اللغة والحديث امتزجا امتزاجا جعل الدواعي إلى الوضع في

(*) – أستاذ بكلية الآداب، ظهر المهراز، فاس.

1– الكليات لأبي البقاء الكفوي ومقاييس اللغة لابن فارس مادة (حدث).

2– الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية للدكتور محمد ضاري حمادي، ص23،24. مؤسسة المطبوعات العربية،بيروت، لبنان، الطبعة الاول(1982).

3– نفسه، ص 189.

أحدهما تتكرر في الآخر، فانتقلت الروح التي سرت في رجال الحديث لتسري في رجال اللغة وبنفس طريقتهم ومنهجهم»[4]، ونظرا للعلاقة التكاملية بين الحديث واللغة فقد تشابهت آليات التحقيق والضبط بين اللغة والحديث «لأن باللغة تفسيره وتأويله فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله»[5]. ولا نبالغ إذا قلنا إن المنهج الحديثي صار منهجا عاما في النقد والتمحيص، ولذلك «لم تكن الحاجة إلى توثيق الرواية لدى اللغويين بأقل مما هي لدى الفقهاء والمحدثين»[6].

لقد نشط اللغويون ابتغاء إرساء الضوابط المنهجية التي يتوسل بها لنقد المتن اللغوي وتمييز الصحيح من الموضوع، فكانوا منسجمين مع الجو العام الذي كانوا يعيشونه «في البيئة الإسلامية والذي كان لأهل الحديث فيه مكان أي مكان، والذي لاشك فيه عندنا أن اللغويين وإن كانوا قد سبقوا إلى نقد متن اللغة فإنهم تأثروا على أقل تقدير بعدد من المصطلحات التي عرفناها عند أصحاب الحديث»[7]، مما يفسر أن أصل التفكير كان واحدا عند الفريقين «فكما اتجه المحدثون إلى الحديث يجمعونه والفقهاء إلى الحديث وفتاوى الصحابة والتابعين يدونونها، اتجه قوم إلى اللغة يجمعونها وكانت مهمتهم جمع الكلمات التي نطق بها العرب وتحديد معانيها فرحل العلماء إلى البادية بمدادهم وصحفهم يسمعون ويكتبون»[8]، فتحكمت في رواية ما سمع وما

4- السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي للدكتور مصطفى السباعي، نقلا عن الحديث النبوي الشرف وأثره، ص193، وانظر مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب للدكتور شرف الدين علي الراجحي ص191،194 و202،216 دار النهضة العربية، بيروت ط1 (1983).

5- الاقتراح في علم أصول النحو لجلال الدين السيوطي ص54، ت محمد حسن اسماعيل الشافعي دار الكتب العلمية،بيروت ط1(1998).

6- دراسات لغوية للدكتور عبد الصبور شاهين، ص24، المطبعة العالمية، القاهرة(1976).

7- مصطلح الحديث وأثره، ص201،202.

8- الحديث النبوي الشريف وأثره، ص 247،248.

كتب ضوابط المحدثين، ولم يكن «المدار في الاعتماد على كثرة الجمع، بل على شوط الصحة»[9].

وإذا كان اللغويون قد اتبعوا في جمع اللغة وروايتها نفس المنهجية التي كانت قد اتبعت في جمع الحديث وروايته فلا يعني ذلك سلامة التطبيق العملي لعمليات الجمع اللغوي من هفوات وثغرات بعضها هين وبعضها يمس جوهر الموضوع[10].

1 – وجه الالتقاء والاختلاف بين الحديث واللغة

يلتقي الحديث واللغة في مسألة الجمع والتدوين بالدرجة الأولى وهي مسألة نقلية احتاجت إلى مجموعة من الضوابط المنهجية التي سبق بها علماء الحديث واستقاها بعد ذلك اللغويون الذين عملوا على جمعها وتنظيمها، وكان الرعيل الأول منهم يحتك مع الأعراب مباشرة، ثم جاء رعيل آخر اقتصرت جهوده على تنظيم ما جمع وترتيبه وتصنيفه في أشكال مختلفة ثم التقعيد له، وكان كتاب سيبويه «أول وضع شامل لقواعد العربية، لم تغير الأجيال المتأخرة شيئا من أسسه وقواعده، وإن وسعته توسيعا مختلف النواحي، أو غيرت من صوره وقوالبه، وكتاب سيبويه يرينا كيف أن القواعد العربية اعتمدت على الاستعمال اللغوي عند عرب البادية دون استثناء»[11].

لقد أخذ اللغويون من المحدثين ما هم بحاجة إليه من طرق التحمل مما لا غنى للرواية اللغوية عنه دون الدخول في التفاصيل، وتبعا لدرجة وثوقية هذه المتون المجموعة تم تصنيفها إلى أقسام عديدة من حيث المتن والسند اقتفاء بالمحدثين، واضعين إياها في سلم من الدرجات، ومن هذه الزاوية انتقلت منهجية المحدثين بزادها

9- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي 77/1 ، دار الكتب العلمية، بيروت،ت فؤاد علي منصور،ط1(1998).

10- الحديث النبوي الشريف،ص249.

11- العربية، دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ليوهان فك، ص60،ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي مصر (1980).

الاصطلاحي إلى الدراسة اللغوية، إلا أن هذا ليس معناه توظيف هذه المصطلحات بالطريقة نفسها لدى المحدثين، وإنما أخضعها اللغويون لمقتضيات الممارسة اللغوية ولذا من الطبيعي أن تتغاير مضامينها من سياقها العلمي السابق الى السياق العلمي الجديد.

وإذا كان كتاب سيبويه أول كتاب جامع مدون وصل إلينا في الدراسة النحوية فكيف نبرز فيه أثر المرجعية الحديثية في جانبها الاصطلاحي خاصة؟

2 - سيبويه ومصطلح الحديث

ترجع أهمية البحث في هذا الموضوع للثقل الذي يحضر به المصطلح ذو الخلفية الحديثية ضمن مصطلح الكتاب، فقد غطى مساحة كبيرة بالنظر الى باقي المصطلحات مع درجة كبيرة في الورود، حيث ناهز الأربعين مصطلحا أغلبها مصطلحات ذات ضمائم متعددة ومتنوعة مع كونها تتحرك مفهوميا في دائرة مصادر الأدلة التي يستدل بها سيبويه في سياق الاحتجاج للقواعد والتي لا تخرج على كل حال عن مصدرين أساسين: كلام الله تعالى(القرآن) وكلام العرب من شعر ونثر.

ذهب سيبويه في أحكامه التصويبية مذهب المحدثين في تقصي جزئيات الألفاظ اللغوية وتفصيلاتها تقصيا يتميز بتتبع كل واردة ، حتى توفرت في الكتاب مادة اصطلاحية غزيرة تكون معجما خاصا بهذه الأحكام تتنوع مادته تنوع مصطلحات أصناف الحديث عند المحدثين، وان لم يصرح بمصطلحات المحدثين بأعيانها فقد صرح بها في المعنى، وهو موقف يتساوق مع مواقف اللغويين والنحاة العرب الذين كانوا يحرصون على الاستفادة من مصطلح الحديث في«توثيق المادة اللغوية واضعين نصب أعينهم ارتباط هذه المادة بنصوص مقدسة، هي في الوقت نفسه إسناد لما تحوي من ألفاظ وتراكيب،فإذا عني الفقهاء من هذه النصوص بفحواها، كان اهتمام أهل اللغة بمحتواها من مادة اللغة»[12].

12- دراسات لغوية، ص 24.

3 – كيفية استفادة سيبويه من مصطلح الحديث

يحق لنا أن نطرح السؤال عن كيفية استفادة سيبويه من مصطلح الحديث خصوصا ونحن نعلم أن أول طلبه العلم كان الفقه والحديث[13].

يستعمل سيبويه مصطلحاته المستمدة أصلا من مصطلح الحديث في سياق الحكم على النصوص المستشهد بها للقاعدة حسب درجاتها في المقبولية «ويبدو أن تلك الفائدة قد ظهرت حين توقف سيبويه أمام بعض التراكيب، وحكم عليها بعدم الصحة نحويا، ولقد رأى أن تلك التراكيب تعادل الأحاديث من حيث إمكانية "الجرح والتعديل" لا من حيث "التركيب" فأطلق عليها العبارات والمصطلحات (...) كالصحة والكذب والاستقامة والإحالة.»[14]

وسنحاول اختيار نموذجين من مصطلح الكتاب يوافقان ما اعتدناه لدى المحدثين في الصورة اللفظية على الأقل، وسيكون أحدهما من ألفاظ الرواية والآخر من ألفاظ الدراية.

1.3 – غريب شاذ

وهو كما يبدو مصطلح مركب تركيبا وصفيا يحسن أن نرده إلى أفراده ثم نعيد تركيبه.

الغريب: هو في اللغة الغامض من الكلام ، وكلمة غريبة،وقد غربت(...) وأغرب الرجل: جاء بشيء غريب(...) وقال الأصمعي: أغرب الرجل إغرابا : إذا جاء بأمر غريب[15].

13– سيبويه إمام النحاة في آثار الدارسين خلال اثني عشر قرنا،كوركيس عواد،ص10،مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد (1978).

14– التراكيب غير الصحيحة نحويا في الكتاب لسيبويه،دراسة لغوية،الدكتور محمد سليمان ياقوت ص39 دار المعرفة الجامعية اسكندرية،ط2(1988).

15– لسان العرب لابن منظور(غرب).

وقد جاء في المعاجم الاصطلاحية ما يلي:

الغريب كل شيء فيما بين جنسه عديم النظير[16]. والغريب : المحتاج والمسافر والأمر النادر، والغرابة : الندرة. وعند أصحاب المعاني كون الكلمة وحشية أي غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال.[17]

الشاذ: جاء في اللسان: شذ عنه يشذ ويشذ شذوذا: انفرد عن الجمهور وندر، فهو شاذ، وأشذه غيره.ابن سيده:شذ الشيء يشذ ويشذ شذا وشذوذا: ندر عن جمهوره، وشذه هو يشذه لا غير، وأشذه(...)

وجاءوا شذاذا أي قلالا. وشذ الرجل:اذا انفرد عن أصحابه ، وكذلك كل شيء منفرد فهو شاذ، وكلمة شاذة.[18]

وإذا أردنا تعريف هذا المركب "غريب شاذ" فان حاصله يكون بجمع مفرديه، فيصير الغريب الشاذ هو: الغامض من الكلام الذي معناه غير ظاهر، وكل شيء فيما بين جنسه عديم النظير،فهو الشاذ النادر المنفرد غير مأنوس الاستعمال، «سواء بالنظر إلى الأعراب الخلص أو بالنظر إلينا (...) ويرادفه الوحشي ويقابله المعتاد».[19]

ويمكن أن نخلص إلى أن الغريب والشاذ متقاربان في المعنى، ولعل هذا ما يفسر ورودهما مترادفين عند أهل الحديث في بعض الأحيان، يقول التهانوي: «اعلم أنه يطلق الغريب بمعنى الشاذ الذي ذكر في أقسام الطعن في الضبط.»[20]

16- الكليات،ص663،والمفردات في غريب القرآن-الغين.

17- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي،383/3، دار الكتب العلمية بيروت ،ط1(1998)، ومصطلحات جامع العلوم للأحمد نكري، ص645،647،ت علي دحروج، مكتبة لبنان،ط1(1997) والتعريفات للجرجاني، باب الغين.

18- لسان العرب(شذذ).

19- كشاف اصطلاحات الفنون.383/3،باب الغين،فصل الباء.

20- نفسه.

1.1.3. في اصطلاح المحدثين

الشاذ هو كما قال الشافعي «أن يروي الثقة حديثا يخالف ما روى النـــاس، وليس من ذلك أن يروي ما لم يرو غيره.

وقد حكا ه الحافظ أبو يعلى الخليلي القزويني عن جماعة من الحجازيين أيضـا، قال:والذي عليه حفاظ الحديث، أن الشاذ ما ليس له إلا إسناد واحد، يشذ به ثقة أو غير ثقة،فيتوقف فيما شذ به الثقة ولا يحتج به، ويرد ما شذ به غير الثقة»[21].

أما الغريب فهو حديث يتفرد بروايته شخص واحد في أي موضـــع وقـع التفرد من السند سواء أكان التفرد في أصل السند أي الموضع الذي يدور الإســناد عليه ويرجع إليه وهو طرفه الذي في الصحابي ويسمى غريبا مطلقـــا، أو في أثنـاء السند، ويسمى غريبا نسبيا، ويرادف الغريب الفرد (...) وكما ينقسم إلى مطلـق ونسبي ينقسم إلى غريب متنا وإسنادا، وهو ما تفرد بروايته واحد،وإلى غريب إسنادا لا متنا وهو ما تفرد بروايته واحد عن صحابي ومتنه معروف عن جماعة من الصحابـة بطريق آخر... [22].

وقد يرد المصطلحان مترادفين كما أشرنا سابقا[23]، إلا أن ورودهما مركبـين لاصطلاح واحد نادر الوجود.

2.1.3. في اصطلاح الكتاب

ورد مصطلح"غريب شاذ" في باب ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة من غـير الفعل[24]، ويقصد بذلك ما يجتمع فيه بناءا الاسم والصفة من الثلاثي.

21- الباعث الحثيث لابن كثير، تح أحمد شاكر ص54، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1983).

22- كشاف اصطلاحات الفنون:383/3،385..نفسه: 386/3.

23- نفسه: 386/3.

24- الكتاب: 245/4،ت محمد عبد السلام هارون، عالم الكتب بيروت(دون تاريخ).

عدد سيبويه أوجه الأبنية المختلفة للصفة والاسم مستعملا في ذلك مجموعة من المصطلحات التي تبرز درجة وثوقية المستعمل من الكلام أو درجته من حيث الكثرة والقلة وهلم جرا. ينقل عن بعض العرب فلا يسميهم(4/254،256)،أو ينقل عن بعضهم دون إفصاح عن هذا البعض(4/270) أو ينسبه إلى قول ناس كثير(4/266) أو إلى شخص بعينه ينقل عن العرب"حدثنا أبو الخطاب عن العرب"(4/268)،أو يحكم باطلاق فيقول:"وليس في الكلام شيء على كذا..."(4/255،257...). "ولا نعلم في الكلام كذا" (4/256،257،260،261،262...). "كثير" (4/258) أو "قليل في الكلام" (4/258،259،260،261،263،264...). "قليل جدا" (4/263). "ولم يكثر في كلامهم" (4/272).

فكل هذه أوصاف لدرجة حضور ما يجتمع فيه الاسم والصفة من الثلاثي أو ينفرد فيه الاسم دون الصفة أو العكس، إلى أن نصل معه إلى بناء (مفعول) وقد زيدت فيه الميم في أوله فيصفه بكونه "غريب شاذ"،يقول:«وقد جاء في الكلام (مفعول) وهو غريب شاذ،كأنهم جعلوا الميم بمنزلة الهمزة إذا كانت أولا فقالوا مُفعول كما قالوا أُفعول (...) وذلك قولهم مُعْلوق للمِعلاق»[25].

2.3. حدَّث

وهي في اللغة ما يحدث به المحدث تحديثا، ودوران مادة (حدث) لغويا على أصل واحد هو كون الشيء لم يكن، يقال : حدث أمر بعد أن لم يكن.[26]

1.2.3. في اصطلاح المحدثين

وهي صيغة من صيغ النقل والتحمل عند المحدثين في الأصل، وتندرج ضمن القسم الأول في طرق النقل وهو السماع من لفظ الشيخ والذي «ينقسم إلى إملاء

25- نفسه:4/273.

26- مقاييس اللغة: (حدث)

وتحديث من غير إملاء، وسواء أكان من حفظه أو من كتابه، وهذا القسم أرفع الأقسام عند الجماهير».[27]

وردا على من اعتبر عبارة "سمعت" أرفع من "حدثنا وحدثني" يرى ابن الصلاح أن "حدثنا" و"أخبرنا" أرفع من "سمعت" من جهة أخرى، وهي أنه ليس في"سمعت" دلالة على أن الشيخ رواه الحديث وخاطبه به، وفي "حدثنا" و"أخبرنا" دلالة على أنه خاطبه به ورواه له أو هو ممن فعل به ذلك»[28].

2.2.3. في اصطلاح الكتاب

وردت لفظة "حَدَّثَ" في الكتاب مضافة إلى ضمير المتكلم المفرد "حدثني" وهي الأقل أو مضافة إلى ضمير جماعة المتكلمين "حدثنا" وهي الأكثر[29]، وذلك بصيغتين متباينتين إحداهما عامة والأخرى خاصة، فالعامة فيها ضرب من التكنية ممثلة بوصف من أوصاف من يحدث عنهم دون أن يصرح بأسمائهم ومن نماذج ذلك مايلي:

«حدثنا من لانتهم أنه سمع من العرب من يقول: رويد نفسه..»[30]

«وحدثني من لا أتهم عن الخليل أنه سمع أعرابيا يقول: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب»[31]

«حدثنا بذلك من يوثق به»[32]

27- مقدمة ابن الصلاح: 60.

28- نفسه: 63. يرتب السيوطي صيغ النقل في هذا الباب كالآتي: 1- السماع من لفظ الشيخ وله صيغ أعلاها: أملى علي وأمل. 2- ويلي ذلك سمعت. 3- ويلي ذلك أن يقول: حدثني فلان، وحدثنا فلان.المزهر: 113/1،114،115.

29- يقول السيوطي:" ويستحسن حدثني إذا حدث وهو وحده، وحدثنا إذا حدث وهو مع غيره". المزهر: 115/1.

30- ك: 245/1.

31- ك: 279/1.

32- ك: 316/1.

«وحدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول: إن عمرا لمنطلق»[33]

«وحدثني من لا أتهم، عن رجل من أهل المدينة موثوق به، أنه سمع عربيا يتكلم بمثل قولك: إن زيد لذاهب»[34]

«وحدثنا من نثق به أن بعضهم يقول..»[35]

«حدثني من أثق به أنه سمع عربيا يقول..»[36]

«حدثنا من لانتهم أنه سمعهم يقولون..»[37]

وقد يذكر من يحدث عنه مجردا عن أي وصف كقوله «حدثني من سمعهم يقولون' يعني بني سعد'..»[38]

وقد تكون الصيغة في شكلها العام محصورة في بعض العرب دون تحديدهم بالذات نحو «حدثنا بعض العرب، أن رجلا من بني أسد قال يوم جبلة واستقبله بعير أعور فتطير منه، فقال: يا بني أسد أعور وذا ناب.»[39]

أما الصيغة الخاصة، فهي صيغة صريحة يذكر فيها من يحدث عنهم صراحة، والأشخاص الذين ورد ذكرهم ارتباطا بهذه الصيغة هم: يونس بن حبيب وتكرر نحو خمس وعشرين مرة، وأبو الخطاب وتكرر نحو سبع عشرة مرة، والخليل بن أحمد وتكرر نحو خمس مرات، وعيسى بن عمر وتكرر نحو أربع مرات، وهارون وتكرر نحو ثلاث مرات، وقد ذكر من بين هؤلاء أبو عمرو لكنه لم يذكر إلا منقولا عنه، والغالب أن يكون بصيغة "قول أبي عمرو".

33- ك: 140/2.

34- ك: 152/3.

35- ك: 336/3.

36- ك: 172/4.

37- ك: 472/4. يقول السيرافي:" وذكر أبو زيد اللغوي كالمفتخر بذلك بعد موت سيبويه، قال: كل ما قال سيبويه: وأخبرني الثقة فأنا أخبرته". أخبار النحويين البصريين: 42، والاقتراح للسيوطي: 36.

38- ك: 182/4.

39- ك: 343/1.

ومن نماذج هذه الصيغة الخاصة ما يلي:

- يـــونس: [40]

«حدثنا يونس أن العرب تنشد هذا البيت، وهو لعبدة بن الطيب.»[41]

«حدثنا بذلك يونس»[42]

«حدثنا بذلك يونس عن أبي عمرو وهو رأيه»[43]

«حدثنا يونس أن العرب تقول في كلامها».[44]

«حدثنا يونس أن بعض العرب يقول»[45] «..أن بعض العرب الموثوق بهـــم يقولون..».[46]

«حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عمن يوثق به من العرب»[47]

«..وهو قول أبي عمرو، حدثنا به يونس عن أبي عمرو»[48]

حدثنا بذلك يونس وعيسى جميعـــا أن بعـــض العـــرب الموثـــوق بعربيتـــه يقول:..»[49]

«وحدثنا يونس تصديقا لقول أبي الخطاب أن العرب تقول:..»[50]

40- وقال محمد بن يزيد أبو العباس المبرد، قال يونس بن حبيب وقد ذكر عنده سيبويه: "أظن هذا الغلام يكـذب على الخليل، فقيل له: قد روى عنك أشياء فانظر فيها، فنظر فقال: صدق في جمع ما قال هو قولي." أخبـــار النحويين البصريين للسيرافي: 48.

41- ك: 155/1، 156.

42- ك: 146/1.

43- ك: 405/1.

44- ك: 409/1.

45- ك: 2/ 213.

46- ك: 337/2.

47- ك: 83/2.

48- ك: 96/2، 113.

49- ك: 319/2.

50- ك: 358/2.

« وحدثنا يونس أن ناسا يقولون أبدا: منا ومني ومنو.»[51]

«..وهو قول أبي عمرو، وحدثنا به يونس».[52]

- أبـو الخطـاب :

«وحدثنا أبو الخطاب أنه سمع من العرب من يقال له: إليك، فيقول:إلي.»[53]

«حدثنا أبو الخطاب أنه يقال للرجل المداوم على الشيء لايفارقه ولا يقلـــع عنه: قد ألب فلان على كذا وكذا.»[54]

«وحدثنا أبو الخطاب أنه سمع من يوثق بعربيته مـــن العـــرب ينشـــد هـــذا البيت»[55]

«حدثنا بذلك أبو الخطاب عمن نثق به من العرب»[56]

«حدثنا أبو الخطاب أنه سمع العرب ينشدون هذا البيت غير منون»[57]

- الخليل بن أحمد :

«وحدثنا الخليل أنه سمع من العرب من يوثق بعربيته ينشد هذا البيت وهـــو قول الشماخ».[58]

«وحدثنا الخليل أن ناسا من العرب يقولون..»[59]

51- ك: 410/2.

52- ك: 101/3،119،140،242،337،347،457،93/4،159،183.

53- ك: 249/1،250،255.

54- ك: 353/1، 326/2.

55- ك: 111/2.

56- ك: 118/2،329.

57- ك: 231/3،410،424،468،546،181/4،183،342،412،440.

58- ك: 110/2.

59- ك: 413/3.

«حدثنا بذلك الخليل عن العرب».[60]

«حدثنا الخليل أن ناسا يقولون..»[61]

«وحدثني الخليل وهارون أن ناسا يقولون»[62]

- عيسى بن عمر :

«وحدثنا عيسى أن ناسا كثيرا يقرءونها:﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمون﴾»[63]

«حدثنا بذلك عيسى بن عمر ويونس»[64]

«حدثنا بذلك عيسى»[65]

- هارون :

«وحدثنا هارون أن بعضهم قرأ..»[66]

«وحدثني الخليل وهارون أن ناسا يقولون..»[67]

«وحدثنا هارون أن ناسا، وهم الكوفيون يقرءونها: ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا، وهي لغة جيدة.»[68]

وفي نهاية هذه المعطيات لابد من إبداء الملاحظتين الآتيتين:

60- ك: 4/115، 169.

61- ك: 4/200.

62- ك: 4/444.

63- ك: 2/392.

64- ك: 4/159.

65- ك: 3/545، 2/319.

66- ك: 4/467.

67- ك: 4/444.

68- ك: 2/399.

أ – أن سيبويه يركز على المحدث بالخبر لا على من يحدث عنه وهو العـــربي الذي يعتبر مصدر الكلم لأن «العربي الذي يحتج بقوله لا يشترط فيه العدالة، نعـــم تشترط في راوي ذلك، وكثيرا ما يقع في الكتاب وغيره: حدثني من لا أتهم، ومن أثق به، وينبغي الاكتفاء بذلك وعدم التوقف في القبول ويحتمل المنع»[69]

ب – أن هذه الصيغة غالبا ما تلابس التعابير التي فيها أدنى إشكال في فهمـها أو لبعض الغرابة بالنظر إلى باقي الكلم العربي ولذا يحرص سيبويه على أن يثبتها عـن مصادر هذا الكلام وهم العرب وذلك بطرق متباينة.

فما وجه التلاقي بين ما ورد في الدراسات الحديثية وما ورد في الكتـــاب؟ أو بعبارة أخرى، كيف استفاد سيبويه من مصطلح المحدثين؟

الظاهر أنه استفاد من جانبين:

1– من المادة اللغوية الأصلية للمصطلح.

2– من المنهج الذي اعتمده المحدثون لا في كيفية تطبيق هذا المنهج الذي مـن الطبيعي أن يختلف تبعا لاختلاف موضوع المنهج فموضوعه في علم الحديـــث مـــتن الحديث وسنده وموضوعه في الدراسة اللغوية متن اللغة وسندها.

وبعد الذي تقدم من معطيات أخلص إلى الاستنتاجات الآتية:

لكن قبل تسطير الاستنتاجات وجب أن أشير إلى المقررات الآتية:

– إن الكلام حول المصطلحات التي تخيرتها[70] نموذجا لإثبات التداخل بـــين مصطلح الحديث ومصطلح سيبويه يقوم على الإحصاء التام لمصطلح الكتـــاب[71]، وراعى الاستنتاج بدوره كل ما يثيره المصطلح من معنى أو معان حســـب مواضـــع وروده المختلفة في الكتاب.

69– الاقتراح للسيوطي: 36.

70– من هذه المصطلحات: شاذ منكر،بلغ ،زعم..

71– انظر المصطلح في كتاب سيبويه، فهرسة وتصنيف لصاحب هذه الكلمة، وهو جزء من بحث لنيـــل دبلـــوم الدراسات العليا(مرقون)..

– وإن اكتفيت بمصطلحين نموذجا لتوضيح ما أمكن استنتاجه بواسطتهما، إلا أن ما استنتج يغلب على كل المصطلحات التي لها صلة بالموضوع.

4 – الاستنتاجات

1.4. إن المنهج منهج المحدثين والتطبيق تطبيق اللغويين أخضعوه لمقتضيات الممارسة،اللغوية، ولذلك لم يكن من الضروري أن تتفق مصطلحات سيبويه مع مصطلحات المحدثين بل يكفي اتفاق المنهجين فقط[72]، ويكون في النتيجة،الحديث عن أثر المرجعية الحديثية في مصطلح الكتاب معناه تتبع المصطلحات الوافدة من علم الحديث إلى علم النحو مع إدراك أوجه التغير التي لحقتها بسبب تغير الأطر النظرية والمنهجية الخاصة بها، لأن المصطلحات ،كما هو معلوم، تتغير مضامينها بتغير أنسقتها النظرية والمنهجية وإن ظلت واحدة في الصورة اللفظية.

2.4. يبدو للوهلة الأولى أن أكثر الألفاظ والعبارات الخاصة بالرواية عند سيبويه ليست موثقة ويظهر فيها نوع من التغاضي في توثيق الرواية حيث يلقي هذه العبارات والألفاظ دون نسبتها لقائل معلوم، إلا أن بعض المهتمين بسيبويه من قريب أو بعيد حاولوا توثيق بعض هذه الصيغ واجتهدوا في تحديد رواتها ومصادرها[73]، ومثال على ذلك هذا الكلام الذي أورده السيوطي: «قال أبو المنهال: أئمة البصرة في النحو وكلام العرب ثلاثة:أبو عمرو ابن العلاء، وهو أول من وضع أبواب النحو، ويونس بن حبيب، وأبو زيد الأنصاري، وهو أوثق هؤلاء كلهم وأكثرهم سماعا من فصحاء العرب، سمعته يقول: ما أقول: قالت العرب إلا إذا سمعته من عجز هوازن، وفي رواية أخرى: إلا إذا سمعته من هؤلاء :بكربن هوازن وبني كلاب وبني هلال أو

72– التراكيب غير الصحيحة في الكتاب ص: 42.

73– لابد من الإشادة هنا بما فعلته الباحثة السعودية الدكتورة صالحة راشد غنيم آل غنيم في كتابها : اللهجات في الكتاب لسيبويه أصواتا وبنية. التي سعت إلى توثيق المتن اللغوي في الكتاب والذي خصصته لدراسة ما يتصل بالمفردات دون التراكيب(ص10).

من عالية السفلة أو من سافلة العالية،وإلا لم أقل : قالت العرب»[74]، وزاد في المزهر «قال:وعرضت قوله على الأخفش صاحب الخليل وسيبويه في النحو، فجعل يقول:قال يونس:حدثني الثقة عن العرب، فقلت له:من الثقة؟ قال أبو زيد،فقلت له ما لك لا تسميه؟ قال: هو حي بعد، فأنا لا أسميه.»[75]

ونقل أبو الطيب اللغوي: «قال أبو حاتم عن أبي زيد: كان سيبويه يأتي مجلسي وله ذؤابتان، قال: فإذا سمعته يقول: حدثني من أثق بعربيته، فإنما يريدني».[76]

وأخلص من هذا إلى أن من أهم ما يمكن أن يسدى للكتاب من أعمال، إعادة توثيق المروي منه بدءا بالبناء على ما وثق منه.

3.4. أن أهم ما يمكن وضعه في عين الاعتبار–ارتباطا بما سبق– أن صيغ الرواية عند سيبويه متفاوتة، فمنها ما هو بين مستعلن كما هو الأمر مع النحاة واللغويين الذين وردت أسماؤهم وعلى رأسهم الخليل «مفتاح العلوم ومصرفها»[77]، ومنها ما هو مبهم نحو:(قال ناس كثير) و(من العرب من يقول..) و(بعض العرب يقول...) و(قد سمعناهم يقولون...)إلخ[78].

4.4. أن المصطلحات الخاصة بالرواية تفيد أن سيبويه كان يأخذ عن مصادر الأخذ شفاهيا في الغالب ، وآية ذلك التعابير:(سألته، سمع،أخبر..إلخ).

5.4. إن حضور شخصية سيبويه في الرواية والنقل ماثلة بثقل يبين عن ذلك كثير من العبارات التي تنوه إلى كونه معنيا برواية اللغة متنا وبالنحو دراية، ومخالطته الأعراب الذين كانوا في الأغلب مصدر هذه الرواية ومن ذلك العبارات:(ولا نعلم

74–الاقتراح للسيوطي،ص116، والمزهر:142/1،143

75– المزهر:118/1،119.

76– مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي، ص74،ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2(1974).

77– نفسه، ص55.

78– اللهجات في الكتاب لسيبويه، أصواتا وبنية.صالحة راشد غنيم آل غنيم دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع جدة.ط1(1985).

في الكـــلام:4/256،261،262)،و(ليـــس في الكـــلام شـــيء علـــى كذا:4/255،257..)،و(ذلك قول العرب سمعناه منهم:1/412) [79]..، وكأننا بسيبويه يتكلم في بيئة يحس بنفسه معروف الحال من حيث الوثاقة والعدالة، قـال الأعلـم: «وسيبويه غير متهم رحمه الله فيما نقله ورواه عن العرب.»[80].ولم يتفرد سيبويه بهذه الخلة وحده وإنما كانت ميسما طبع النحاة أو أغلبهم في هذا المرحلة حيث كـانوا يجمعون بين الرواية والدراية أو الجمع والتقعيد،وهي خاصية لازمت النحو والنحـاة إلى حدود الطبقة الرابعة وهي التي ينتسب إليها سيبويه حسب تصنيف أبي ســعيد السيرافي في أخبار النحويين[81]، ثم ما لبثت الدراسة النحوية بعد ذلـك بقليـل أن تجمدت على الاشتغال بالقاعدة حتى شط بها هذا الاشتغال، في كثير من الأحيان،عن المقصد من النحو وأهدافه، وذلك بفعل عوامل معروفة وغـير معروفـة لا سـبيل للخوض فيها.

6.4. إن المنظومة الاصطلاحية النحوية لدى سيبويه محملة في كثـير مـن جوانبها بالمضمون الأخلاقي ذي البعد الديني تشهد بذلك ألفاظ مثل:قبيح، جـائز، غير جائز، كذب،مستقيم.. وهو شيء غير مستغرب،لأن العلوم العربية الإسـلامية كلها كانت موجهة بسائق من الدين ودائرة في فلكه ومحكومة بمقـاصده وغاياتـه، وكانت لغة مصدريه مهيمنة على سائر اللغات ومقدمة عليها.

7.4. لطالما شكا الدارسون من صعوبة الكتاب ومن لغته ومصطلحه، وأعتقـد أن كثيرا من وجوه هذه الصعوبة مردها إلى خصوصية في المنهج والنظر فهو كما قال الشاطبي"يتعلم منه النظر والتفتيش"، والمراد بذلك أن سيبويه وإن تكلم في النحـو، فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفها في ألفاظها ومعانيها،ولم يقتصـر

79- الاقتراح، ص36.

80- النكت للأعلم الشنتمري، ص178، ت رشيد بلحبيب.

81- أخبار النحويين البصريين للسيرافي، ص37 ،ت طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفـى البابي الحلبي مصر،ط1(1955).

فيه على بيان أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب،ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به،حتى احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ في المعاني [82].

وإذا كان الشاطبي اشترط فيمن يتعاطى للمقاصد أن يكون ريان في علوم الشريعة، فإن المتعاطي للكتاب،قياسا على ذلك،يجب أن يكون ريان في علوم اللغة العربية بمعناها الواسع من نحو وصرف وبلاغة وشعر وفقه لغة وكذا بالعلوم المتداخلة مع ذلك في المنهج وغيره كعلم الحديث ومنهجه وطرق الفقهاء في استنباطاتهم وأقيستهم وموازناتهم.

وعلى كل حال فإن أثر المصطلح الحديثي في مصطلح الكتاب لا يمثل إلا وجها من وجوه التداخل المعقدة بين مختلف العلوم العربية الإسلامية وقد أقر العلماء قديما وحديثا مشروعية «تفاعل العلوم بعضها مع بعض، وتشابك العلاقات بينها، فالمباحث الكلامية تتفاعل مع المباحث اللغوية والبلاغية والفلسفية،كما تتفاعل المباحث المنطقية مع المباحث اللغوية والأصولية، وهكذا.وقد ساهم هذا التفاعل في إثراء العلوم والفنون بعضها لبعض وفي توجيه بعضها مسار البعض الآخر، بل أدى ذلك التفاعل إلى امتزاج مصطلحات العلم الواحد بمصطلحات غيره من العلوم إلى حد أن تبدو بعض الإشكالات المعرفية التي يولدها هذا العلم كما لو كانت تنتسب إلى الإشكالات المعرفية التي تدخل في علم غيره، وخير شاهد على ذلك ما نجده من اختلاط التصورات الفلسفية بالمفاهيم الكلامية، واختلاطها بالمعاني الصوفية، ومن امتزاج مصطلحات الجدل بمصطلحات جل العلوم الإسلامية مثل الفقه وعلم الكلام والنحو والبلاغة.ولم يقف هذا التفاعل عند حدود انتقال علوم الآلة إلى علوم

82- المصطلح الصرفي، مميزات التذكير والتأنيث، لعصام نور الدين، ص160،161 دار الكتاب العالمي، مكتبة المدرسة، ط1(1988)، وانظر أيضا ما يحتمل الشعر من الضرورة لأبي سعيد السيرافي، ت الدكتور عوض بن حمد القوزي مطابع دار المعارف ط2(1991).

المقاصد، بل تعدى ذلك إلى انتقال علوم المقاصد ذاتها إلى علوم الآلة كتخريج الآلة النحوية على مقتضى أحكام التصوف»[83].

83- تجديد المنهج في تقويم التراث.الدكتور طه عبد الرحمن ، ص91 ، المركز الثقافي العربي ط(1994).